

أحاديث رمضان ١٤٢١ - تفسير آيات - سورة الأعراف - الدرس (١٢ - ٥٢) : القصة .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٠-١٢-٠٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الأعمال الصالحة فقط لها أثر مستقبلي

يقول الله عز وجل :

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾

[سورة الأعراف الآية: ٩٢]

أي كل المتع التي قد تأتي للإنسان من شهواته الحسية ليس لها مفعول مستقبلي أبداً ، مفعولها أنني ، وقد سماها الله متاع الحياة الدنيا ، أو متاع الغرور ، أي أكلة أكلتها ، أكلتها وانتهت ، هذه اللذة التي قد حصلت لها أثر مستقبلي أبداً ، تنقضي بانقضائها ، فهؤلاء الذين عصوا ربهم ، واستمتعوا بالدنيا وتفلتوا من منهج الله حينما يأتيهم الموت انتهت لذائذهم ، وبقيت مسؤولياتهم ، اللذائذ الحسية ليس لها أثر مستقبلي ، بينما الأعمال الصالحة تسعد بها إلى أبد الأبدان ، فقد يغتني الإنسان وقد يأكل ما يشتهي ، وقد يمارس ما يشتهي ، وقد يقول ما يشتهي ، وقد يلتقي مع من يشتهي ، وقد يملأ عينيه ممن يشتهي ، ويأتي الموت فحبل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشيائهم من قبل ، بقيت المسؤولية ، هؤلاء الذين يسرقون مثلاً ، يقضون ليالي معدودة حمراء ، ثم يقبض عليهم ويلقون بالسجون إلى أمد طويل ، القضية قضية عقل ، فحينما تحكم عقلك بما أنت فيه تجد أن كل شيء يدعوك إلى الآخرة ، لذلك :

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾

[سورة الأعراف الآية: ٩٢]

بقيت المسؤولية ، تصور إنسان له دخل محدود اقتترض مبلغاً كبيراً من المال ، ليؤديه كل شهرٍ على أقساط ، المبلغ ضاع منه أو سرق ، بقي أداء الأقساط ، هذه الخسارة ، يزول النعيم وتبقى المسؤولية ، أما المؤمن مشاهدته لنفسه وهواه تنتهي عند الموت وتبقى الجنة ، أي الأعمال الصالحة لها أثر مستقبلي ، هذا معنى قوله تعالى :

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾

[سورة الأعراف الآية: ٩٢]

تنتهي مهمة المؤمن بعبادة الله

هنالك شيء آخر ، يقول الله عز وجل :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾

[سورة الأعراف الآية: ٩٤]

أفهم على الله ، كل أنواع السراء والضراء ، الشدائد المادية والنفسية ، من أجل أن تتضرع إلى الله ، فإن لم تتضرع قال :

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾

[سورة الأعراف الآية: ٩٥]

حتى عفوت ، حتى ظن أن هذه الحسنات شيء طبيعي ، وهكذا الدنيا ، يوم لك ويوم عليك .

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

[سورة الأعراف الآية: ٩٥]

كما قلت قبل يومين ، دعوة بيانية ، بأساء وضراء .

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ

بَغْتَةً﴾

[سورة الأعراف الآية: ٩٥]

أربعة مراحل ، واضحة جداً في هذه الآية ، أحياناً الإنسان يحتار ، يرى حوادث يصعب تفسيرها ، يرى أهل الحق ضعفاء ، وأهل الكفر أقوياء ، وأن هؤلاء الأقوياء يفعلون ما يريدون ، وكأنهم آلهة العصر ، فحينما تضطرب الأمور ! وحينما تشعر أن هناك رؤية غير صحيحة ! عليك بهذه الآية :

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٤٤]

أي أنت كعبد تنتهي مهمتك في أن تطيع الله عز وجل ، وأن تشكره على نعمه المتناهية ، الأمر واضح واضح ، إن لم يتضح لك ! أنت عبد كل هذا الكون يشهد بكمال الله عز وجل ، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف ، قد لا تتضح لك الحكمة ، قد ينشأ عندك أسئلة كثيرة ، كيف تجيب عنها ؟ أنا عبد ، أفوض الأمر إلى الله ، هو الرحيم ، هو الحكيم ، هو العليم ، ما من شيء يقع إلا أَرَادَهُ اللهُ ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، إذاً أنا علي أن أطيعه ، فإذا أطعته جاءتني الخيرات ، علي أن أشكر ، أي حل رائع ، إذا اختلطت الأمور وأصبحت الرؤيا ضبابية ولم تفسر الحوادث عليك بهذه الآية :

﴿بَلِ اللّٰهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة الزمر الآية: ٦٦]

عليك أن تعبده ، فإن عبده جاءتك الخيرات عليك أن تشكره ، وانتهى الأمر ، بالمناسبة لن أقول ، لن تستطيع أن تثبت عدل الله بعقلك ، إلا في حالة واحدة ، أن يكون لك علم كعلم الله ، ومادمت لا تملك علماً كعلم الله ينبغي أن تصدق الله ، أنه لا يظلم مثقال ذرة ، فعدالة الله تقنع بها من النص :

﴿وَمَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

[سورة النساء الآية: ٧٧]

﴿وَمَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾

[سورة النساء الآية: ١٢٤]

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾

[سورة غافر الآية: ١٧]

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾

[سورة الروم الآية: ٩]

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾

[سورة الأنبياء الآية: ٤٧]

كم عدد هذه الآيات ؟

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾

[سورة الروم الآية: ٩]

نفي الشأن أبلغ من نفي الحدث ، أي استحيل أن يظلمهم ، أو أن يريد ظلمهم ، أو أن يرضى بظلمهم ، و أن يسمح لأحد أن يظلمهم ، كل هذه الأفعال منفية بهذه الآية ، إذا عدل الله لا تحاول أن تكتشفه بعقلك ، لأن عقلك لا يملك علم الله عز وجل ، قد تجد شيئاً مزعجاً ينتج منه خير كثير ، وقد تجد إنسان في ظاهره برئ ، وهو في الحقيقة ليس كذلك ، فأنت لا تعتب على الله إن لم تفهم الأمور ، أنا مهمتي أن أطيع الله وأن أشكره .

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٤٤]

والآية الثانية :

﴿بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة الزمر الآية: ٦٦]

يوجد نقطة دقيقة أن هذا الذي أراد الدنيا وأصر عليها ، وتمسك بشهواته ، هذا الإنسان لم ير في الكون آية ، لأن حبك الشيء يعمي ويصم ، حبك الشيء يعميك عن الحقيقة لذلك هذا سموه تحصيل حاصل .

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٤٦]

المتكبر لن ير شيئاً ، لأنه ما أراد الحق ، أراد الدنيا ، أراد الشهوة ، قد يمر إنسان أمام مسجد صدقوني يستخف من في المسجد ، لأنه بعيد ، غارق في شهواته ، غارق في دنياه ، وهؤلاء الذين في المسجد في أعلى درجة من السعادة ، لو أطلع عليهم لشك في نفسه .
يوجد قول دقيق جداً ، قاله شخص واحد أصدقه ، إبراهيم بن الأدهم ، كان ملكاً ، كان ملك فترك الملك ، واتجه إلى الله عز وجل ، وأصبح من كبار العارفين بالله ، هو مدفون الآن في

جبله وله مسجد ، قال هذا العارف بالله : لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف .
لأنه كان ملكاً ويعرف ما الملك هو في كلامه مصدق ، يوجد ومضة من ومضات هذه السورة :
﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْتُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ
سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٦٣]

أي محرم عليهم صيد الحيتان يوم السبت ، فأنشئوا مزارع للأسماك ، ودخلت قبل يوم السبت ،
ويوم السبت أغلقوا المنافذ ، واصطادوها يوم الأحد ، هذه حيلة من حيل بني إسرائيل ، فلذلك أيها
الأخوة عندما نستخدم مثل هذه الحيل نكون لا نعرف الله أبداً .

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٠]

هناك معنيان لهذه الآية ، المعنى الأول ينبغي أن تدعو الله بأسمائه الحسنى ، يا كريم ، يا رحيم ،
يا عليم ، ويوجد معنى أعمق من ذلك ، هو أنك لن تستطيع أن تقبل على الله عز وجل إلا في
حالة واحدة ، أن تشتق منه كمالاً تدعوه به ، أي إن أردت أن تقبل على الرحيم كن رحيماً بالخلق
، إن أردت أن تقبل على العليم ، أطلب العلم ، تعرف إلى الله عز وجل ، قدره حق قدره ، إن
أردت أن تقبل على الكريم كن كريماً ، فحينما تتخلق بكمالات مشتقة من الله عز وجل يمكن أن
تقبل عليه .

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٠]

أما قوله تعالى :

﴿وَأْمُرِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٣]

أي كيد الله تدبيره متين ، فأنت في قبضة الله دائماً ، ولكن قد لا تدري ، الحبل مرخي ، مرخي
كثيراً لدرجة أنك قد تتوهم أنك حر طليق ، لكن في أي لحظة يشد الحبل فإذا أنت في قبضة الله .

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٣]

بالمناسبة المتانة مقاومة قوى الشد ، والقسوة مقاومة قوى الضغط ، فكأنك مربوطٌ بحبلٍ متين ،
فمهما كنت قوياً في ثانية أنت في قبضة الله عز وجل .

﴿وَأْمُرِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٣]

يوجد نقطة أن الإنسان حينما يبتعد عن الله عز وجل قد يستدرج ، وهو في قمة ذكائه ، وقمة
خبرته يستدرج ، إذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لب لبه ، فيفعل شيئاً يعود عليه بوبال
كبير ، ماذا فعل فرعون ؟ هكذا يروى : أنه رأى في منامه أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي

على ملكه ماذا فعل ؟ قام بقتل أبناء بني إسرائيل كلياً ، وأي قابلية لا تخبر عن مولود ذكر تقتل مكانه وانتهى الأمر ، أما هذا الذي سيقضي على ملكه رباه في قصره .

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾

[سورة قصص الآية: ٨]

أي إذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لب لبه ، تجمع وتطرح وتقسم وتضرب وتخطط ، في النهاية تأتي على رأسك !! أي نحن في قبضة الله ، حتى هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم سفهاء قال :

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾

[سورة البقرة الآية: ١٤٢]

هم سفهاء ، لو أنهم فكروا وسكتوا لأبطلوا القرآن ، قال عنهم قيل أن يقولوا .

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾

[سورة البقرة الآية: ١٤٢]

أبو لهب لو توجه إلى النبي وأعلن الشهادة أبطل الآية ، نحن في قبضة الله .

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٣]

فأنت ما عليك إلا أن تطيعه وأن تشكره .

الفتوى الخاطئة لا ينجو صاحبها من عذاب الله

آخر شيء في الدرس

﴿قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ

وَمَا مَسَّنِيَ السُّوْءُ﴾

[سورة الأعراف الآية: ١٨٨]

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو قمة المجتمع البشري ، هو أول الأنبياء والمرسلين ، سيد ولد آدم ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فلأن لا يملك لنا نفعاً ولا ضراً من باب أولى ، فلأن لا يملك أي إنسان كائناً من كان لنفسه نفعاً ولا ضراً من باب أولى وأولى ، فالأمر بيد الله ، أحياناً الإنسان يتعلق بفتوى لعالم ، أنا معي فتوى ، حسناً لو أن النبي أفنتى لك ولم يكن محققاً لا تنجو من عذاب الله .

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا

بِقَوْلِهِ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ ، فَلَا يَأْخُذْهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم]

لو أن النبي بذاته أفتى لك بشيء ولم تكن محقاً لا تتجو من عذاب الله ، أي علاقتك مع الله وحده، لذلك البطولة أن تكون عند الله في مقعد صدق ، أن تكون عند الله مرضياً ، أن تكون عند الله مقبولاً ، أما هذا الذي يسعى ليكون عند الله مقبولاً هذا السعي لا يقدم ولا يؤخر .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارضى عنا ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين